وهذا سؤال لأهل الذكر ، مثلما نستدعى مهندساً ليصمم لنا بيتاً حين نشرع فى بناء بيت ، بعد أن نمتلك الإمكانات اللازمة لذلك.

وهكذا نرى أن علوم الحياة وحركتها أوسع من أن يتسع لها رأس ؛ ولذلك وزَّع الله أسباب فضله على عباده ، ليتكاملوا تكاملَ الاحتياج، لا تكامل التفضُّل ، ويصير كل منهم مُلْتحماً بالآخرين غَصْباً عنه.

وبعد ذلك يقول الحق ـ سبحانه:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾

وبالنسبة للقرآن نجد الحق ـ سبحانه ـ يقول : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ[1] الأَمِينُ ۝١٩٣ ﴾ [الشعراء]

فنسب النزول مرة لجبريل كحامل للقرآن ليبلغ به رسول الله ﷺ.

ومرة يقول : ﴿ نُزِّلَ .. ۝٢ ﴾ [محمد]

والنزول فى هذه الحالة منسوب لله وجبريل والملائكة.

أما قول الحق ـ سبحانه : ﴿ أُنزِلَ .. ۝٩١ ﴾ [البقرة]

فهو القول الذى يعنى أن القرآن قد تعدى كونه مَكْنوناً فى اللوح المحفوظ ليباشر مهمته فى الوجود ببعث رسول الله ﷺ .

---

(١) «الروح الأمين: هو جبريل عليه السلام. قاله غير واحد من السلف: ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية العوفي والسدى والضحاك والزهرى وابن جريج، وهذا مما لا نزاع فيه» قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٤٧).

هذا هو معنى الإنزال للقرآن جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا[1]، ثم نزل من بعد ذلك نجوماً[2] متفرقة ؛ ليعالج كل المسائل التى تعرِّض لها المسلمون.

وهكذا يؤول الأمر إلى أن القرآن نزل أو نزل به الروح الأمين.

والحق - سبحانه - يقول :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

أى: أن الحق - سبحانه - أنزله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم أنزله مفرقاً ليعالج الأحداث ويباشر مهمته في الوجود الواقعى[3].

---

(١) ذكر أبو شامة فى المرشد الوجيز أن «السر فى إنزاله جملة إلى السماء، تفخيم أمره وأمر من نزل عليه، وذلك بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الامم، قد قرَّبناه إليهم لننزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم مُنجماً بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة، كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله باين بينه وبينها. فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مُفرّقاً، تشريفاً للمُنزل عليه. نقله السيوطى فى [الإتقان فى علوم القرآن ١/ ١١٩)].

(٢) نجوماً: مُنجَّماً، اى: ان القرآن أنزل مفرقاً نجماً بعد نجم، آية بعد آية ، على حسب الأحداث والأحوال، ولذلك كان علم «أسبابِ النزول» وذلك أدعى إلى قبوله، بخلاف ما لو نزل جملة واحدة، فإنه كان ينفر من قبوله كثير من الناس، لكثرة ما فيه من الفرائض والمناهى. انظر [لسان العرب مادة: نجم]، [الإتقان للسيوطى ١/ ١٢٣].

(٣) من أمثلة هذا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

قال الواحدى عن أسباب نزول هذه الآية: « لما بنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش أولم عليها بتمر وسويق وذبح شاة. قال أنس: وبعثت إليه أمى أم سليم بحيس فى تور من حجارة، فأمرنى النبى ﷺ أن أدعو أصحابه إلى الطعام، فجعل القوم يجيئون فيأكلون فيخرجون ، ثم يجيء القوم ويأكلون ويخرجون. فقلت: يا نبى الله قد دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه. فقال: ارفعوا طعامكم. فرفعوا وخرج القوم وبقى ثلاثة أنفار يتحدثون فى البيت، فأطالوا المكث، فتأذى منهم رسول الله ﷺ وكان شديد الحياء، فنزلت هذه الآية» [أسباب النزول: ص٢٠٥].

وفى هذه الآية يقول ـ سبحانه :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. ② ﴾ [يوسف]

وفى الآية السابقة قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ..① ﴾ [يوسف]

فمرَّة يَصِفه بأنه قرآن بمعنى المقروء ، ومرَّة يَصِفه بأنه كتاب ؛ لأنه مسطور ، وهذه من معجزات التسمية.

ونحن نعلم أن القرآن حين جُمِع(١) ليكتب ؛ كان كاتب القرآن لا يكتب إلا ما يجده مكتوباً ، ويشهد عليه اثنان من الحافظين.

ونحن نعلم أن الصدور قد تختلف بالأهواء ، أما السطور فمُثْبتة لا لَبْسَ فيها.

وهو قرآن عربى؛ لأن الرسول ﷺ سيجاهر بالدعوة فى أمة عربية، وكان لابد من وجود معجزة تدل على صدق بلاغه عن الله، وأن تكون

(١) قال الحاكم فى المستدرك : جمع القرآن ثلاث مرات:

إحداها : بحضرة النبى ﷺ .

الثانية : بحضرة أبى بكر رضى الله عنه.

الثالثة : فى زمن عثمان رضى الله عنه.

والمقصود هنا هو الجمع الثانى للقرآن والذى قام به زيد بن ثابت بأمر من أبى بكر رضى الله عنه: إنك شاب عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه . قال زيد : فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال. وكان زيد لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان. قال السيوطى: «وهذا يدل على أن زيداً كان لا يكتفى بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به مَنْ تلقَّاه سماعاً، مع كون زيد كان يحفظ، فكان يفعل ذلك مبالغة فى الاحتياط. [انظر: الإتقان فى علوم القرآن ١/ ١٦٤ ـ ١٦٧] باختصار.

ممَّا نبغ[١] فيه العرب ؛ لأن المعجزة مشروطة بالتحدى ، ولا يمكن أن يتحداهـم فى أمر لا ريادة لهم فيه ولا لهم به صلة ؛ حـتى لا يقولن أحد: نحن لم نتعلم هذا ؛ ولو تعلمناه لجئنا بأفضل منه.

وكان العرب أهل بيان وأدب ونبوغ فى الفصاحة والشعر ، وكانوا يجتـمعـون فى الأسواق[٢]، وتتفـاخر كل قـبيلة بشعـرائها وخطبـائها المُفوَّهين[٣] ، وكانت المباريات الأدائية تُقَـام ، وكانت التحديات تجرى فى هذا المجال ، ويُنصَب لها الحكام.

أى : أن الدُّرْبَة على اللغة كانت صناعة متواترة ومتواردة ، محكوم عليها من الناس فى الأسواق ، فَهُم أمة بيان[٤] وبلاغة وفصاحة.

لذلك شـاء الحق ـ سبحـانه ـ أن يكون القـرآن معجـزة من جنس ما نبغ فـيه العـرب ، وهم أول قوم نزل فـيهم القرآن ، وحـين يؤمن

(١) نبغ الشىء : ظهر. نبغ منهم شاعر: خرج. والنابغة: الشاعر المعروف، سُمِّى بذلك لظهوره. [لسان العرب ـ مادة: نبغ].

(٢) كانت للعرب أسواق يجتـمعون فيها، مثل: عكاظ، وذى المجاز، فكانت قـبائل العرب تجتمع بها كل سنة ويتفاخرون بها، يحضرها الشعراء فيتناشدون ما أحدثوا من الشعر.

(٣) المفوَّه : حسن الكلام بليغ المنطق، فهو قادر على الكلام الجيد فى بساطة وسلاسة. راجع بعض هذا فى [لسان العرب ـ مادة: فوه].

(٤) البيان: إظهـار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفـهم وذكاء القلب مع اللَّسَن، وأصله الكشف والظهـور. [اللسان ـ مـادة: بين]. والبـيان: الـكشف والإيضاح والكلام البـليغ. قال تعـالى: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ..(١٣٨)﴾ [آل عمران] أي: كشـف وإيضـاح أو هذا كلام بليغ. وقوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن] أى: النطق المعبِّر عمَّـا فى النفس من معانٍ وأفكار. [القاموس القويم ـ مادة: بين].

هؤلاء لن يكون التحدى بفصاحة الألفاظ ونسق الكلام ، بل بالمبادىء التى تطغى على مبادىء الفرس والروم.

وهى مبادىء قد نزلت فى أمة مبتدِّية[1] ، ليس لها قانون يجمعها، ولا وطن يضمهم يكون الولاء له ، بل كل قبيلة لها قانون ، وكلهم بَدْو يرحلون من مكان إلى مكان.

وحين نزل فيهم القرآن علم أهل فارس والروم أن تلك الأمة المُتبدِّية قد امتلكتْ ما يبنى حضارة ليس لها مثيل من قَبْل ، رغم أن النبى أمِيٌّ وأن الأمة التى نزل فيها القرآن كانت أمية.

وفارس والروم يعلمون أن الرسول الذى نزل فى تلك الأمة تحدَّاهم بما نبغُوا فيه، وما استطاع واحد منهم أن يقوم أمام التحدى ، ومن هنا شعروا أنهم أمام تحد حضارى من نوع آخر لم يعرفوه.

ويشاء الحق ـ سبحانه ـ أن ينزل القرآن عربياً ؛ لأن الحق لم يكن ليرسل رسولاً إلا بلسان قومه ، فهو القائل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ[2] قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. (٤)﴾ [إبراهيم]

---

(١) متبدية: نسبة إلى البادية. يقال: تبدّى الرجل: أقام بالبادية. والبادية: خلاف الحضَر. وسُمِّيت بادية لبروزها وظهورها عن أماكن تجمع الناس فى الحضر حول الماء وغيره. بتصرف من [لسان العرب ـ مادة: بدو].

(٢) اللسان: إحدى حواس الذوق والنطق، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩)﴾ [البلد] فالله يمتنُّ على الإنسان بنعمة البصر والنطق. واللسان: اللغة والكلام، قال تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا .. (٣٤)﴾ [القصص] أى: اقدر منى على الكلام الفصيح. وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ..(٢٢)﴾ [الروم] ألسنتكم، أى: لغاتكم ولهجاتكم [القاموس القويم ـ مادة لسن].

وأُرسلَ محمد ﷺ بالقرآن ، الذى تميَّزَ عن سائر كتب الرسل الذين سبقوه ؛ بأنه كتاب ومعجزة فى آنٍ واحد ، بينما كانت معجزات الرسل السابقين عليه ﷺ مُنْفصلةً عن كُتب الأحكام التى أُنزلتْ إليهم.

ويظلُّ القرآن معجزة تحمل منهجاً إلى أنْ تقومَ الساعة ، ومادام قد آمنَ به الأوائل وانساحوا[1] فى العالم، فتحقق بذلك ما وعد به الله أن يكون هذا الكتابُ شاملاً ، يجذب كل مَنْ لم يؤمن به إلى الانبهار بما فيه من أحكام.

ولذلك حين يبحثون عن أسباب انتشار الإسلام فى تلك المدة الوجيزة، يجدون أن الإسلام قد انتشر لا بقوة مَنْ آمنوا به ؛ بل بقوة مَنْ انجذبوا إليه مَشْدُوهِين[2] بما فيه من نُظُمٍ تُخلِّصهم من متاعبهم.

ففى القرآن قوانين تُسعد الإنسانَ حقاً ، وفيه من الاستنباءات بما سوف يحدث فى الكون ؛ ما يجعل المؤمنين به يذكرون بالخشوع أن الكتاب الذى أنزله الله على رسولهم لم يفرط فى شىء.

وإذا قال قائل من المستشرقين: كيف تقولون : إن القرآن قد نزل

---

(١) السياحة: الذهاب فى الأرض لاغراض مختلفة منها العبادة والدعوة والتجارة. وأصله من سَيْح الماء الجارى على وجه الارض. [لسان العرب ـ مادة: سيح] بتصرف.

(٢) شُدِه الرجل شَدَهاً: تحيَّر. والدَّهَش ايضاً: التحيُّر. دهش: تحيَّر، او ذهب عقله من ذَهَل أو وَلَه فهو مدهوش، وادهشه غيره. [اللسان ـ مادتا: شده، دهش].

بلسان عربى مبين ؛ رغم وجود ألفاظ أجنبية مثل كلمة « آمين » التى تؤمِّنون[(١)] بها على دعاء الإمام ؛ كما توجد ألفاظ رومية[(٢)]، وأخرى فارسية[(٣)]؟

وهؤلاء المستشرقون لم يلتفتوا إلى أن العربى استقبل ألفاظاً مختلفة من أمم متعددة نتيجة اختلاطه بتلك الأمم ، ثم دارتْ هذه الألفاظ على لسانه ، وصارت تلك الألفاظ عربية ، ونحن فى عصورنا الحديثة نقوم بتعريب الألفاظ ، وندخل فى لغتنا أىَّ لفظ نستعمله

---

(١) التأمين: قول آمين. وآمين : كلمة تُقال فى إثر الدعاء، قال الفارسى: هى جملة مركبة من فعل واسم، معناه: اللهم استجب لى. [لسان العرب - مادة: أمن]. وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» أخرجه الإمام مالك فى موطئه (٨٧/١) وأحمد فى مسنده (٢٢٨/٢ ، ٣٢١) والبخارى فى صحيحه (٧٨٠) وكذا مسلم (٤١٠).

(٢) من أمثلة الألفاظ الرومية الموجودة فى القرآن الكريم :

- (الرقيم) فى قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) ﴾ [الكهف]. قال السيوطى فى الإتقان (١١٢/٢) أنه قد قيل فيها ثلاثة أقوال: اللوح، الكتاب، الدواة.
- (الصراط) : حكى النقاش وابن الجوزى أنه الطريق بلغة الروم.
- (طفقا) فى قوله تعالى : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. (٢٢) ﴾ [الأعراف] معناه: قصدا بالرومية.

(٣) من أمثلة الألفاظ الفارسية فى القرآن الكريم :

- (أباريق) : حكى الثعالبى فى فقه اللغة أنها فارسية. وقال الجواليقى: الإبريق فارسىٌّ مُعرَّب، ومعناه: طريق الماء، أو صب الماء على هينة.
- (دينار) : فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا .. (٧٥) ﴾ [آل عمران] . ذكر الجواليقى وغيره أنه فارسى.
- (سجيل): عن مجاهد قال: سجيل بالفارسية، أولها حجارة، وآخرها طين.

ويدور على ألسنتنا ، ما دُمْنا نفهم المقصود به[١].

ويُذيِّل الحق ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله :

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ ﴾ [يوسف]

ليستنهض همة العقل ، ليفكر فى الأمر ، والمُنْصف بالحق يُهمه أن يستقبل الناس ما يعرضه عليهم بالعقل ، عكس المدلس[٢] الذى يهمه أن يستر العقل جانباً ؛ لينفُذَ من وراء العقل.

وفى حياتنا اليومية حين ينبهك التاجر لسلعة ما ، ويستعرض معك متَانتها ومحاسنها ؛ فهو يفعل ذلك كدليل على أنه واثق من جودة بضاعته.

أما لو كانت الصَّنْعة غير جيدة ، فهو لن يدعوك للتفكير بعقلك ؛ لأنك حين تتدبر بعقلكَ الأمر تكتشف المُدلس وغير المُدلس ؛ لذلك فهو يدلس عليك، ويُعمِّى عليك، ولا يدع لك فرصة للتفكير.

---

(١) ذكر السيوطى فى كتابه الإتقان (٢/١٠٥ ـ ١٠٨) اختلاف العلماء فى عربية هذه الألفاظ وفى أعجميتها وذكر أدلة كل من الفريقين ثم قال: «وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «الصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب، فعرّبتها بألسنتها وحوّلتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجمية فصادق» ومال إلى هذا القول الجواليقى وابن الجوزى وآخرون».

(٢) التدليس: إخفاء العيب. والمدالسة: المخادعة. والتدليس فى البيع: كتمان عيب السلعة عن المشترى. واندلس الشيء: إذا خفي [لسان العرب ـ مادة: دلس].

ويقول الحق ـ سبحانه ـ من بعد ذلك:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ (١) بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣ ﴾

حين يتحدث الحق ـ سبحانه ـ عن فعل من أفعاله ؛ ويأتى بضمير الجمع ؛ فسبب ذلك أن كل فعل من أفعاله يتطلب وجودَ صفات متعددة ؛ يتطلب : علماً ؛ حكمة ؛ قدرة ؛ إمكانات.

ومَنْ غيره ـ سبحانه ـ له كل الصفات التى تفعل ما تشاء وقْتَ أن تشاء؟

لا أحد سواه قادر على ذلك ؛ لأنه ـ سبحانه ـ وحده صاحب الصفات التى تقوم بكل مطلوب فى الحياة ومُقدَّر.

لكن حين يتكلم ـ سبحانه ـ عن الذات ؛ فهو يؤكد التوحيد فلا تأتى بصيغة الجمع ، يقول تعالى : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي

---

(١) قصَّ الكلام أو الأخبار: يقصُّها قصاً وقصصاً: تتبعها ورواها وحكاها. قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ .. ۝٢٥ ﴾ [القصص] أى: قص عليه أخباره وحدَّثه بها. والقصص: مصدر يُطلق على ما يُروى من الأخبار، قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ .. ۝١١١ ﴾ [يوسف] . [القاموس القويم (٢/ ١٢٠)] .

وَأَقِمِ[1] الصَّلاةَ لِذِكْرِي[2] (١٤)﴾ [طه]

وهنا يتكلم ـ سبحانه ـ بأسلوب يعبر عن أفعال لا يَقْدر عليها غيره؛ بالدقة التى شاءها هو ـ سبحانه ـ فيقول:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣)﴾ [يوسف]

وحدد ـ سبحانه ـ أنه هو الذى يقصُّ، وإذا وُجِد فعل لله ؛ فنحن نأخذ الفعل بذاته وخصوصه ؛ ولا نحاول أن نشتق منه اسماً نطلقه على الله ؛ إلا إذا كان الفعل له صفة من صفاته التى علَّمْناها فى أسمائه الحسنى ؛ لأنه الذات الأقدس.

وفى كل ما يتعلق به ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً إنما نلتزم الأدب ؛ لأننا لا نعرف شيئاً عن ذات الله إلا ما أخبرنا الله عن نفسه ، لذلك لا يصح أن نقول عن الله أنه قصَّاص ، بل نأخذ الفعل كما أخبرنا به ، ولا نشتق منه اسماً لله ؛ لأنه لم يصف نفسه فى أسمائه الحسنى بذلك.

---

(١) اقام الصلاة: اداها كاملة. وقوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ..(٢٩)﴾ [الاعراف] اى: اخلصوا قلوبكم لله، وعَدِّلوا وجوهكم واجعلوها تتجه لله فى المساجد فى الصلاة بإخلاص. وقوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .. (٣٠)﴾ [الروم] اى: ارفعه وعدِّله، والمراد كن مستقيماً مخلصاً للدين. وإقام: اسم مصدر من اقام بمعنى إقامة. ومنه: ﴿وَإِقَامِ الصَّلاةِ .. (٣٧)﴾ [النور] اى: إقامة الصلاة كاملة بصفة دائمة. [القاموس القويم ٢/ ١٤٠، ١٤١، ١٤٢] بتصرف واختصار شديدين.

(٢) الذكر: الاستحضار بالقلب مع التامل، والذكر الحديث والقصة. والذكر: القرآن والكتب المنزلة كلها. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر] هو القرآن الكريم. وقوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)﴾ [الشرح] اى: شرفك وحديث الناس عنك بالخير.

والواجب أن ما أطلقه ـ سبحانه ـ اسماً نأخذه اسماً، وما أطلقه فعلاً نأخذه فعلاً.

وهنا يقول ـ سبحانه:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣)﴾ [يوسف]

ونعلم أن كلمة «قص» تعنى الإتباع ، وقال بعض العلماء : إن القصة تُسمَّى كذلك لأن كل كلمة تتبع كلمة ، ومأخوذة من قَصِّ الأثر ، وهو تتبع أثر السائر على الأرض ، حتى يعرف الإنسان مصير مَنْ يتتبعه ولا ينحرف بعيداً عن الاتجاه الذى سار فيه مَنْ يبحث عنه.

واقرأ قول الحق ـ سبحانه ـ: ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ(١) بِهِ عَن جُنُبٍ(٢) وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١)﴾ [القصص]

و ﴿قُصِّيهِ .. (١١)﴾ [القصص]

أى: تتبعى أثره.

إذن : فالقَصُّ ليس هو الكلمة التى تتبع كلمة، إنما القَصُّ هو تتبُّع ما حدث بالفعل.

---

(١) بصُر به: رآه ببصره فهو بصير. وبصُر بالأمر: علمه كأنه رآه ببصره.. وقوله: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ .. (١١)﴾ [القصص] أى: رأته من أحد جوانب البيت وهى متخفية. وقوله تعالى عن السامرى: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ .. (٩٦)﴾ [طه] أى: علمت بما لم يعلموا، وهو رؤية أثر الرسول أو سرّه. [القاموس القويم ١/ ٦٩].

(٢) الجنب: قد يراد به البُعْد البعيد كما يراد به الجانب. قال تعالى : ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ .. (١١)﴾ [القصص] أى : عن بُعْد ، أو رأته من جانب من جوانب القصر أو من بعيد. [القاموس القويم ١/ ١٣٠].

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً من قصة موسى عليه السلام مع فتاه:

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ[١] وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا[٢] (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ[٣] فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)﴾ [الكهف]

أى: تابَعا الخطوات.

وهكذا نعلم أن القص هو تتبُّع ما حدث بالفعل، فتكون كل كلمة مُصوِّرة لواقع، لا لَبْس[٤] فيه أو خيال؛ ولا تزيُّد، وليس كما يحدث

---

(١) الحوت: السمكة، كبرت أو صغرت، والجمع حيتان. قال تعالى عن موسى قوله: ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ .. (٦٤) ﴾ [الكهف] أى: السمكة، وقال: ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا .. (١٦٣) ﴾ [الأعراف] كانت تظهر لهم الحيتان فى الماء يوم السبت، فيصيدونها مخالفين أمر ربهم. [القاموس القويم ١/١٧٦] قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة: حوت]: «المحاوتة: المراوغة. وهو يُحاوتنى أى يُراوغنى. وحاتَ الطائر على الشىء يحوت أى: حام حوله».

(٢) العجب: روعة ودهشة تأخذ الإنسان عند استحسان شىء خَفِى سرُّه أو استعظامه. وأعجبه الأمر: سرَّه أو حمله على العجب منه. وأمر عجيب وعُجاب وعُجَّاب بتشديد الجيم للمبالغة. قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ .. (٥) ﴾ [ص]. [القاموس القويم ٢/٧].

(٣) بغى الشىء: طلبه. وابتغاه: طلبه. قال تعالى: ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ .. (٤٧) ﴾ [التوبة] أى: يطلبونها لكم. وقال تعالى: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] وقوله: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ .. (٤٨) ﴾ [التوبة] أى: طلبوها وسعوا فى بثها ونشرها. والابتغاء: الطلب. قال تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ .. (١٠٤) ﴾ [النساء] فى طلبهم لقتالهم، وقال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ .. (٢٢) ﴾ [الرعد] أى: طلباً لرضاه تعالى عنهم. [القاموس القويم ١/٧٦، ٧٧].

(٤) اللَّبْس واللبَس: اختلاط الأمر. لبس عليه الأمر يلبسه لبساً فالتبس إذا خلطه عليه حتى لا يعرف جهته. والتبس عليه الأمر أى: اختلط واشتبه. وتلبس بى الأمر: اختلط وتعلق. [لسان العرب - مادة: لبس].

فى القصص الفنىِّ الحديث ؛ حيث يضيف القصَّاص لقطاتٍ خيالية من أجل الحَبْكة[1] الفنية والإثارة وجَذْب الانتباه.

أما قَصَص القرآن فوضْعُه مختلف تماماً ، فكلُّ قَصص القرآن إنما يتتبع ما حدث فعلاً؛ لنأخذ منها العبرة[2]؛ لأن القصة نوع من التاريخ.

والقصة فى القرآن مرةً تكون للحدث، ومرَّة تكون لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ ، فلم تَأْتِ قصة رسول فى القرآن كاملة، إلا قصة يوسف ـ عليه السلام.

أما بقية الرسل فقَصَصهم جاءت لقطاتٍ فى مناسبات لتثبيت فؤاد[3] الرسول محمد ﷺ ، فتأتى لقطة من حياة رسول، ولقطة من حياة رسول آخر، وهكذا.

ولا يقولن أحد : إن القرآن لم يستطع أن يأتى بقصة كاملة

---

(١) الحبْك : الشدُّ .والحُبُكة: الحبل يُشدُّ به على الوسط. والتحبيك: التوثيق. وجاد ما حبكه إذا أجاد نَسْجه. وحبك الثوب يحبكه حبكاً: أجاد نسجه وحسَّن أثر الصنعة فيه. [لسان العرب ـ مادة: حبك] ويستعار اللفظ ليستخدم فى الحبكة القصصية كأنها ثوب يُجَاد نسجه وصنعه فلا يكون مُهَلهَلاً.

(٢) وذلك فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ..(١١١)﴾ [يوسف]. والعبرة: اسم للشىء الذى يتعظ به الإنسان. والعبرة: العظة. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً ..(٤٤)﴾ [النور]. وقال: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ (٢)﴾ [الحشر] أى: اتعظوا. [القاموس القويم ٢/٤].

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠)﴾ [هود] أى: نثبت به فؤادك على أداء الرسالة والصبر على ما ينالك فيها من الأذى. [تفسير القرطبى ٣٤٣٥/٤].

مستوفية؛ فقد شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يأتى بقصة يوسف من أولها إلى آخرها، مُسْتوفية، ففيها الحدث الذى دارتْ حوله أشخاصٌ، وفيها شخصٌ دارتْ حوله الأحداث.

فقصة يوسف ـ عليه السلام ـ فى القرآن لا تتميز بالحَبْكة فقط؛ بل جمعتْ نَوعَيْ القصة، بالحدث الذى تدور حوله الشخصيات، وبالشخص الذى تدور حوله الأحداث.

جاءتْ قصة يوسف بيوسف، وما مَرَّ عليه من أحداث ؛ بَدْءً من الرُّؤيا، ومروراً بحقد الإخوة وكيدهم، ثم محاولة الغواية[1] له من امرأة العزيز، ثم السجن، ثم القدرة على تأويل الأحلام، ثم تولِّى السلطة، ولقاء الإخوة والإحسان إليهم، وأخيراً لقاء الأب من جديد.

إذن : فقول الحق ـ سبحانه:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣) ﴾ [يوسف]

يبيِّن لنا أن الحُسْن آتى لها من أن الكتب السابقة تحدثت عن قصة يوسف، لكن أحبار[2] اليهود حين قرأوا القصة كما جاءتْ بالقرآن ترك

(١) الغواية : الضلال والانهماك فى الغَيِّ والفساد. غَوَى يَغْوِى: انهمك فى الجهل وهو ضد الرشد. قال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ..(٢٥٦) ﴾ [البقرة]. [القاموس القويم ٢/٦٤].

(٢) الأحبار: جمع حَبْر، وهو العالم. قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ .. (٣١) ﴾ [التوبة] وأصل الكلمة الحِبْر: الذى يُكتب به، وهو المداد. وكل ما حَسُن من خط أو كلام أو شعر أو غير ذلك، فقد حَبُر حَبْراً وحُبِّر. [لسان العرب ـ مادة: حبر].

بعضهم كتابه ، واعتمد على القرآن فى روايتها ، فالقصة أحداثها واحدة ، إلا صياغة الأداء ؛ وتلمُّسات المواجيد النفسية ؛ وإبراز المواقف المطْويَّة فى النفس البشرية ؛ وتحقيق الرُّؤى الغيبية كُلُّ ذلك جاء فى حَبْكَة ذات أداء بيانى مُعْجز جعلها أحسنَ القَصَص .

أو : هى أحسن القصص بما اشتملتْ عليه من عبَر متعددة ، عبَر فى الطفولة فى مواجهة الشيخوخة ، والحقد الحاسد بين الإخوة ، والتمرد ، وإلقائه فى الجبِّ والكيد له ، ووضعه سجيناً بظلم ، وموقف يوسف عليه السلام من الافتراء الكاذب ، والاعتزاز بالحق حتى تمَّ له النصر والتمكين .

وكيف ألقى الله على يوسف ـ عليه السلام ـ محبةً منه ؛ ليجعل كل مَنْ يلتقى به يحب خدمته .

وكيف صانَ يوسف إرثَ النبوة ، بما فيها من سماحة وقدرة على العفو عند المقدرة ؛ فعفَا عن إخوته بما روتْه السورة: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ[1] عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾ [يوسف]

وقالها سيد البشر محمد ﷺ لأهله يوم فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء»[2] .

---

(١) ثرّبه : لامه وعتب عليه . وثرّبه بالتضعيف : أكثر لَوْمَه ، وعيّره بذنبه ، وأنّبه على سوء فعله. قال تعالى : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ..(٩٢)﴾ [يوسف] أى: لا لوم ولا تأنيب. [القاموس القويم ١/١٠٦].

(٢) قال ابن إسحاق: حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال : ما تَرَوْن أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء» [راجع : السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢].

هكذا تمتلئ سورة يوسف بِعِبَر متناهية ، يتجلَّى بعضٌ منها فى قضية دخوله السجنَ مظلوماً ، ثم يأتيه العفو والحكم ؛ لذلك فهى أحسنُ القَصص ؛ إما لأنها جمعتْ حادثة ومَنْ دار حولها من أشخاص ، أو جاء بالشخص وما دار حوله من أحداث.

أو : أنها أحسنُ القصص فى أنها أدَّتْ المُتَّحد والمتفق عليه فى كل الكتب السابقة ، وجاء على لسان محمد الأمى ، الذى لا خبرة له بتلك الكتب ؛ لكن جاء عَرْضُ الموضوع بأسلوب جذَّاب مُسْتمِيل مُقْنع مُمْتع.

أو : أنها أحسن القصص ؛ لأن سورة يوسف هى السورة التى شملت لقطاتٍ متعددة تساير : العمر الزمنى ؛ والعمر العقلى ؛ والعمر العاطفى للإنسان فى كل أطواره ؛ ضعيفاً ؛ مغلوباً على أمره ؛ وقوياً مسيطراً ، مُمكَّناً من كل شىء .

بينما نجد أنباء الرسل السابقين جاءت كلقطات مُوزَّعة كآيات ضمن سُور أخرى ؛ وكل آية جاءت فى موقعها المناسب لها.

إذن : فالحُسْن البالغ قد جاء من أسلوب القرآن المعجز الذى لا يستطيع واحد من البشر أن يأتى بمثله.

يقول الحق سبحانه : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ [يوسف]

والمقصود بالغفلة هنا أنه ﷺ كان أُمِّياً، ولم يعرف عنه أحدٌ قبل

نزول القرآن أنه خطيب أو شاعر ، وكل ما عُرِف عنه فقط هو الصفات الخُلقية العالية من صدق وأمانة ؛ وهى صفات مطلوبة فى المُبلِّغ عن الله ؛ فما دام لم يكذب من قبل على بشر فكيف يكذب وهو يُبلِّغ عن السماء رسالتها لأهل الأرض ؟

إن الكذب أمر مُسْتبعد تماماً فى رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها.

والمثال على تصديق الغير لرسول الله هو تصديق أبى بكر رضى الله عنه له حين أبلغه رسول الله ﷺ أن الوحى قد نزل عليه ، لم يَقُلْ له أكثر من أنه رسول من عند الله ، فقال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ: صدقْتَ.

وحين حدثتْ رحلة الإسراء ؛ وكذَّبها البعض متسائلين : كيف نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ويقول محمد إنه قطعها فى ليلة ؟ فسألهم أبو بكر : أقال ذلك ؟ قالوا : نعم . فقال أبو بكر : ما دام قد قال فقد صدق[1].

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٣٩٨/١) باختصار «أن رسول الله ﷺ لما أصبح بعد عودته من بيت المقدس غدا على قريش فأخبرهم الخبر. فأنكروا عليه ذلك ، وقصدوا أبا بكر وعرضوا عليه هذا الأمر فى إنكار ، فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ، هاهو ذاك فى المسجد يحدّث به الناس.

فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يُعجبكم من ذلك . فوالله إنه ليُخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه ».

وهكذا نجد أن حيثية الصِّدْق قبل الرسالة هى التى دلَّتْ على صدقه حين أبلغ بما نزل عليه من وحى.

مثال ذلك : تصديق خديجة رضى الله عنها وأرضاها له ؛ حين أبلغها بنزول الوحى ، فقالت له : « والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتَصِلُ الرَّحِم، وتحمل الكَلَّ[1] ، وتُكسب المَعْدُوم[2]، وتَقْرى[3] الضَّيف ، وتعين على نوائب[4] الحق »[5].

وكان فى صدق بصيرتها ، وعميق حساسية فطرتها أسبابٌ تؤيد تصديقها له ﷺ فى نبوته[6].

وحين وقعت بعض الأمور التى لا تتفق مع منطق المقدمات والنتائج ، والأسباب والمسببات ؛ كانت بعض العقول المعاصرة

---

(١) الكَلُّ : هو مَنْ لا يستقل بأمره . قال تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ ..(٧٦)﴾ [النحل] . والكل هو: العاجز الثقيل لا خير فيه [القاموس القويم ٢/١٦٩] باختصار .

(٢) المعدوم: كالميت الذى لا تصرُّف له . والمعنى : أنك تعطى الناس ما لا يجدونه عند غيرك. [فتح البارى ١/٢٤].

(٣) قَرَى الضيف : أضافه . والقِرى : طعام الأضياف . [لسان العرب ـ مادة : قرى].

(٤) النوائب : جمع نائبة ، وهى ما ينوب الإنسان أى : ينزل به من الملمات والحوادث . والنائبة : المصيبة من مصائب الدهر تنزل بالإنسان . [لسان العرب ـ مادة : نوب] بتصرف.

(٥) حديث بدء الوحى أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٦) قال رسول الله ﷺ : « آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدَّقتنى إذ كذَّبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء » . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/١١٨) من حديث عائشة.

لرسول الله تقف متسائلة : كيف ؟ فيوضح لهم أبو بكر : « انتبهوا إنه رسول الله ».

مثال هذا : ما حدث فى صلح الحديبية ، حين يقول عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ متسائلاً ـ ويكاد أن يكون رافضاً لشروط هذا الصلح ـ : ألسْنا على الحق ؟ عَلام نعطى الدَّنية[١] فى ديننا ؟

ويرد عليه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ : استمسك بِغَرْزِه[٢] يا عمر ، إنه رسول الله[٣].

أى : انتبه واعلم أنك تتكلم مع رسول الله ﷺ ، وليس فى ذلك انصياعٌ أعمى ؛ بل هى طاعة عن بصيرة مؤمنة.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ [يوسف]

والغافل : هو الذى لا يعلم ـ لا عن جهل ، أو قصور عقل ـ ولكن لأن ما غفل عنه هو أمر لا يشغل باله.

---

(١) الدنية: الخصلة المذمومة. ورجل دَنِيٌّ من قوم أدنياء هو الضعيف الخسيس [لسان العرب ـ مادة: دنا] باختصار .

(٢) الغرز: رِكَاب الرحْل ، وكل ما كان مساكاً للرِّجْلَيْن فى المركب غَرْز . والغرز للناقة مثل الحزام للفرس ، ومثل الركاب للبغل . ومنه حديث أبى بكر أنه قال لعمر : « استمسك بغرزه » أى : اعتلق به وأمسكه واتبع قوله وفعله ولا تخالفه . فاستعار له الغرز كالذى يمسك بركاب الراكب ويسير بسيره. [لسان العرب ـ مادة : غرز].

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٢٣ ـ ٣٢٥) من حديث المسور بن مخرمة الزهرى ومروان ابن الحكم وتمامه « أن عمر بن الخطاب أتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطى الذلة فى ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه حيث كان» الحديث.

أو : أن يكون المقصود بقوله:

﴿ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ [يوسف]

أى : أنك يا محمد لم تكن ممَّنْ يعرفون قصة يوسف ؛ لأنك لم تتعلم القراءة فتقرأها من كتاب ، ولم تجلس إلى مُعلِّم يروى لك تلك القصة ، ولم تجمع بعضاً من أطراف القصة من هنا أو هناك.

بل أنت لم تَتَلَقَّ الوحى بها إلا بعد أن قال بعض من أهل الكتاب لبعض من أهل مكة : اسألوه عن أبناء يعقوب وإخوة يوسف ؛ لماذا خرجوا من الشام وذهبوا إلى مصر[1] ؟

وكان ضَرْباً[2] من الإعجاز أن ينزل إليك يا رسول الله هذا البيان العالى بكل تفاصيل القصة ، كدليل عمليٍّ على أن مُعلِّم محمد ﷺ هو الله ، وأنه سبحانه هو مَنْ أوحى بها إليه .

والوَحْى ـ كما نعلم ـ هو الإعلام بخفاء ، وسبحانه يوحى للملائكة فيقول :

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا.. (١٢)﴾ [الأنفال]

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره من قول النحاس (٣٤٤٠/٤) : « يُروى أن اليهود قالوا : سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن خبر يوسف ، فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقاً لما فى التوراة ، وفيه زيادة ليست عندهم » .

(٢) الضرب : الصنف من الأشياء . ويقال : هذا من ضرب ذلك أى من نحوه وصِنْفه ، والجمع : ضُروب . وضرب الله مثلاً أى وصف وبيَّن . وقولهم : ضرب له المثل بكذا ، إنما معناه بيَّن له ضَرْباً من الأمثال أى صنفاً منها . [لسان العرب ـ مادة : ضرب] .

وسبحانه يوحى إلى مَنْ يصطفى من البشر إلى صفوتهم ؛ مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ[1] أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) ﴾ [المائدة]

ويقذف الحق سبحانه بالإلهام وحياً لا يستطيع الإنسان دَفْعاً له ، مثل الوحى لأم موسى بأن تلقى طفلها الرضيع موسى فى اليَمّ[2] :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ[3] فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ[4] يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه]

ويوحى سبحانه إلى الأرض وهى الجماد ، مثل قوله الحق :

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة]

---

(١) الحواريون : جمع حوارى ، وهو : الخالص النقيُّ من كل شيء ، وشاع استعماله فى الخلصاء والأصفياء للأنبياء . قال تعالى : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ .. (٥٢) ﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم : ١٧٧/١] .

(٢) اليم : البحر أو النهر العذب . قال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (١٣٦) ﴾ [الأعراف] ، وهو خليج السويس وماؤه ملح ، وهو امتداد البحر الأحمر . وقوله تعالى : ﴿ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ .. (٣٩) ﴾ [طه] هو نهر النيل العذب . [القاموس القويم : ٣٧٢/٢] .

(٣) التابوت : الصندوق . قال تعالى : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ .. (٢٤٨) ﴾ [البقرة] والتابوت أيضاً : الأضلاع وما تحويه كالقلب والكبد وغيرهما ، تشبيهاً بالصندوق الذى يُحْرز فيه المتاع . [القاموس القويم : ٩٦/١] ، [لسان العرب ـ مادة : تبت] .

(٤) سحله : قشره ونحته . والرياح تسحل الأرض : تكشط ما عليها من تراب . والساحل : شاطىء النهر ؛ لأن الموج يأكل منها وينحته ويسحته . قال تعالى : ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه] أى : بشاطىء النهر . [القاموس القويم : ٣٠٦/١] .

وأوحى سبحانه إلى النحل ، فقال الحق :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(١) (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً(٢) ..(٦٩) ﴾ [النحل]

والحق سبحانه يوحى لمن شاء بما شاء ، فالكل ؛ جماد ونبات وحيوان وإنسان ؛ من خَلْقه ، وهو سبحانه يخاطبهم بِسِرِّ خَلْقه لهم ، واختلاف وسائل استيعابهم لذلك.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ(٣) لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا(٤) وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ (٤) ﴾

(١) عرش البيت : سقفه . قال تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ..(٤٥) ﴾ [الحج] . [لسان العرب ـ مادة : عرش] .

(٢) ذل : لان وانقاد من غير قهر بعد تصعُّب ، فهو ذلول وجمعه ذلل ، وهذه مطايا ذلل أو طرق ذلل : سهلة ممهدة ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ﴾ [الملك] ، وقوله : ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا .. (٦٩) ﴾ [النحل] أى : ممهدة للنحل ليجمع العسل منها . [القاموس القويم : ١/٢٤٥ باختصار] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٤١/٤) : « سئل أبو الحسن الأقطع ـ وكان حكيماً ـ عن « يوسف » فقال : الأسف فى اللغة الحزن ، والأسيف العبد ، وقد اجتمعا فى يوسف ؛ فلذلك سُمّى يوسف » .

(٤) الكوكب : فى تعبير القرآن يشمل الكوكب البارد التابع المستمد نوره من غيره ، ويشمل النجم الملتهب كأنه كرة كبيرة من النيران ، قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ..(٣٥) ﴾ [النور] أى : نجم ساطع الضياء ، [القاموس القويم : ٢/١٧٧ باختصار] .

وهكذا تبدأ قصة يوسف ، حين يقول لأبيه يعقوب عليهما السلام « يا أبت » ، وأصل الكلمة « يا أبى » ، ونجد فى اللغة العربية كلمات « أبى » و « أبتِ » و « أبتاهُ » و « أبَة » وكلها تؤدى معنى الأبوة ، وإن كان لكل منها مَلْحظ لغوى .

ويستمر يوسف فى قوله :

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف]

وكلنا رأينا الشمس والقمر ؛ كُلٌّ فى وقت ظهوره ؛ لكن حُلم يوسف يُبيِّن أنه رآهما معاً ، وكلنا رأينا الكواكب متناثرة فى السماء آلافاً لا حَصْرَ لها ، فكيف يرى يوسف أحد عشر كوكباً فقط ؟

لا بُدَّ أنهم اتصفوا بصفات خاصة ميَّزتهم عن غيرهم من الكواكب الأخرى ؛ وأنه قام بعدِّهم .

ورؤيا يوسف عليه السلام تبيِّن أنه رآهم شمساً وقمراً وأحد عشر كوكباً ؛ ثم رآهم بعد ذلك ساجدين .

وهذا يعنى أنه رآهم أولاً بصفاتهم التى نرى بها الشمس والقمر والنجوم بدون سجود ؛ ثم رآهم وهم ساجدون له ؛ بملامح الخضوع لأمر من الله ، ولذلك تكررت كلمة « رأيت » وهو ليس تكراراً ، بل لإيضاح الأمر .

ونجد أن كلمة ﴿ سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف]

وهى جمع مذكر سالم ؛ ولا يُجمع جَمْع المذكر السالم إلا إذا كان

المفرد عاقــلاً ، والعقل يتميز بقدرة الاختيــار بين البدائل ؛ والعاقل المؤمن هو مَنْ يجـعل اختـياراته فى الدنيـا فى إطار منهج الدين ، وأسْمَى مـا فى الخضوع للدين هو السجود لله .

ومَنْ سجدوا ليوسف إنما سجـدوا بأمر من الله ، فَهُم إذن يعقلون أمر الحق سبحانه وتعالى[1] .

مثلُهم فى ذلك مَثَلُ ما جاء فى قول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ[2] لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ ﴾ [الانشقاق]

هذه السماء تعقل أمر ربِّها الذى بَنَاها .

وقال عنها أنها بلا فُرُوج[3] :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٤٣/٤) : « القول عند الخليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسجود وهما من أفعال من يعقل أخبر عنهما كما يخبر عمَّنْ يعقل » .

ويؤخذ من مفـهوم خواطر الإمام أن الآية بيَّنت منزلة يوسف بين الأسـرة ، ومنزلته عند ربه وأنه فى نهاية المطاف سيعترفون بفضله وعظمته ، وهذا دليل الانتصار بعد الحصار .

ولنعلم أن الرؤيا المنامـية لهـا قوانين تختلـف عن الرؤية البصرية ، وأن رمـزيات الرؤيا المنامية فيها من الأسرار ما يعطى المطلوب ؛ لأنها تحمل إشارات توضيحية للمراد منها مثل رؤيا يوسف فى حـالة سـجودهـم له ، وأنه رأى الجمـيع فى وقت واحـد مع حـذف الزمن المنوط بهما .

(٢) أذن لكلام فلان ، وأذن إلى صوته : استـمع إليه بأذنه وأنصت معجباً به مُحـباً له ، وفُسِّر بهذا المعنـى قوله تعالى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ ﴾ [الانشقـاق] أى : استمعت لأمـر ربها واستجابت وأطاعت وخضعت راضية . [القاموس القويم : ١٦/١ باختصار] .

(٣) الفروج : جـمع فرج ، وهو الخلل بين الشـيئـين . والفرج : الشق ، قال تـعالى فى وصف السماء : ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ ﴾ [ق] أى : شقوق فهى متمـاسكة لا خلل فيها ولكنها يوم القيامة تتـشقق . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝ ﴾ [المرسلات] . [القـاموس القويم : ٧٤/٢] .

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝﴾ [ق]

وهى أيضاً تسمع أمر ربها ، مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝﴾ [الانشقاق]

أى : أنها امتلكتْ حاسة السمع ؛ لأن «أذنت » من الأذن ؛ وكأنها بمجرد سماعها لأمر الله ؛ تنفعل وتنشق[1] .

وهكذا نجد أن كل عَالَم من عوالم الكون أُمَم مثل أمة البشر[2] ، ويتفاهم الإنسان مع غيره من البشر ممَّن يشتركون معه فى اللغة ، وقد يتفاهم مع البشر أمثاله ممن لا يعرف لغتهم بالإشارة ، أو من خلال مُترجم ، أو من خلال تعلُّم اللغة نفسها .

ولكن الإنسان لا يفهم لغة الجماد ، أو لغة النبات ، أو لغة الحيوان ؛ إلا إذا أنعم الله على عبد بأن يفهم عن الجماد ، أو أن يفهم الجماد عنه .

والمثل : هو تسبيح الجبال مع داود ، ويُشكِّل تسبيحه مع تسبيحها «جُوقة »[3] من الانسجام مُكَوَّن من إنسان مُسبِّح ؛ هو أعلى الكائنات ، والمُردِّد للتسبيح هى الجبال ، وهى من الجماد أدنى الكائنات .

---

(١) ومثال هذا قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝﴾ [فصلت]

(٢) قال تعالى : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ..۝﴾ [الأنعام] .

(٣) الجَوْق فى اللغة : كل خليط من الرعاء أمرهم واحد . وقال الليث : الجوق كل قطيع من الرعاة أمرهم واحد . والجوق أيضاً : الجماعة من الناس . [لسان العرب ـ مادة : جوق].

ونحن نعلم أن كل الكائنات تُسبِّح ، لكننا لا نفقه تسبيحها[1] ، ولكن الحق سبحانه يختار من عباده مَنْ يُعلِّمه مَنْطق الكائنات الأخرى ، مثلما قال سبحانه عن سليمان :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦) ﴾ [النمل]

وهكذا علمْنا أن للطير منطقاً . وعلَّم الحقُّ سبحانه سليمان لغة النمل ؛ لأننا نقرأ قول الحق :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ[2] سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[3] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) ﴾ [النمل]

إذن : فلكُلِّ أمَّة من الكائنات لغة ، وهي تفهم عن خالقها ، أو مَنْ أراد له الله سبحانه وتعالى أن يفهم عنها ، وبهذا نعلم أن الشمس والقمر والنجوم حين سجدتْ بأمر ربها ليوسف في رؤياه ؛ إنما فهمتْ عن أمر ربها .

---

(١) قال تعالى : ﴿ .. وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ [الإسراء] .

(٢) حطمه يحطمه : كسره بعنف ، وأصل الحطم : كسر الشيء الجاف ، ويُطلق على أي كسر ، قال تعالى : ﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ .. (١٨) ﴾ [النمل] . والحطام : ما تكسَّر من اليابس ، قال تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة] .

(٣) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثّه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده ، قال تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ .. (١٩) ﴾ [النمل] أي : ألهمني شكرك وادفعني إليه وحبِّبه إليَّ [القاموس القويم ٢/٣٣٤] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا[1] إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ ﴾

وحين يُورد القرآن خطاب أب لابن نجد قوله ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ وهو خطابُ تحنينٍ ، ويدل على القرب من القلب[2] ، و « بُنى » تصغير « ابن » .

أما حين يأتى القرآن بحديث أب عن ابنه فهو يقول « ابنى » مثل قول الحق سبحانه عن نوح يتحدث عن ابنه الذى اختار الكفر على الإيمان :

﴿ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [هود]

وكلمة « يا بنى » بمـا فيها من حنان وعطف ؛ ستفيدنا كثيراً فيما سوف يأتى من مواقف يوسف ؛ ومواقف أبيه منه .

وقول يعقوب ليوسف « يا بنى » يُفْهم منه أن يوسف عليه السلام ما زال صغيراً ، فيعقوب هو الأصل ، ويوسف هو الفرع ، والأصل دائماً يمتلىء بالحنان على الفرع ، وفى نفس الوقت نجد أىَّ أب يقول : مَنْ يأكل لقمتى عليه أن يسمع كلمتى .

---

(١) كاد فلاناً يكيده كيْداً : خدعه ومكر به واحتال لإلحاق الضرر به . والكيد مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتذرع بها الكائد ليتغلب على خصمه . [القاموس القويم : ٢/ ١٨٠] .

(٢) ورد هذا الخطاب فى القرآن ٦ مرات فى سورة هود ويوسف ولقمان فى ثلاث آيات والصافات .

ولنعلم أن الكون وما فيه ومَنْ فيه وظيفته أمام الله الطواعية والسجود استجابة لمراد الله فهو من الواردات .

وقول الأب : يا بنى ، يفهم منه أن الابن ما زال صغيراً ، ليست له ذاتية منفصلة عن الأب ليقرر بها ما هو المناسب ، وما هو غير المناسب .

وحين يفزع يوسف مما يُزعجه أو يُسيء إليه ؛ أو أى أمر مُعْضَل[1] ؛ فهو يلجأ إلى مَنْ يحبه ؛ وهو الأب ؛ لأن الأب هو – الأقدر فى نظر الابن – على مواجهة الأمور الصعبة .

وحين روى يوسف عليه السلام الرؤيا لأبيه ؛ قال الأب يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ .. ⑤ ﴾ [يوسف]

ونفهم من كلمة « رؤيا » أنها رؤيا منامية ؛ لأن الشمس والقمر والنجوم لا يسجدون لأحد ، وهذا ما يوضح لنا دقة اللغة العربية ، فكلمة واحدة هى « رأى » قد يختلف المعنى لها باختلاف ما رُؤى ؛ فرؤيتك وأنت يقظانُ يُقال عنها « رؤية » ؛ ورؤيتك وأنت نائم يُقال عنها « رؤيا » .

والرؤية مصدر مُتفق عليه من الجميع ؛ فأنت ترى ما يراه غيرك ؛ وأما « الرؤيا » فهى تأتى للنائم .

وهكذا نجد الالتقاء فى « رأى » والاختلاف فى الحالة ؛ هل هى حالة النوم أو حالة اليقظة . وفى الإعراب كلاهما مؤنث ؛ لأن علامة التأنيث إما :

---

(١) الأمر المعضل : الصعب الشديد الضيق . عضَّل عليه فى أمره تعضيلاً : ضيَّق من ذلك وحال بينه وبين ما يريد ظلماً . وعضَل بهم المكان : ضاق . وعضَّلت الأرض بأهلها إذا ضاقت بهم لكثرتهم . [لسان العرب ـ مادة : عضل] .

« تاء » ، أو « ألف ممدودة » ، أو « ألف مقصورة »[١] .

وأخذت الرؤية الحقيقية التى تحدث فى اليقظة « التاء » وهى عمدة التأنيث ؛ أما الرؤيا المنامية فقد أخذت ألف التأنيث .

ولا يقدح[٢] فى كلمة « رؤيا » أنها منامية إلا آية واحدة فى القرآن ، حين تحدث الحق سبحانه عن لحظة أن عُرِج[٣] به ﷺ ؛ فقال :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً[٤] لِّلنَّاسِ.. (٦٠) ﴾ [الإسراء]

ولكن مَنْ يقولون : « إنها رؤيا منامية » لم يفقهوا المعنى وراء هذا القول ؛ فالمعنى هو : إن ما حدث شىء عجيب لا يحدث إلا فى الأحلام ، ولكنه حدث فى الواقع ؛ بدليل أنه قال عنها : أنها «فتنة للناس » .

---

(١) علامات التأنيث اللفظية ثلاث هى :

– تاء التأنيث : تدخل على الفعل والاسم ، مثل جالسة وفاطمة ولأنها تدخل للتفرقة بين المذكر والمؤنث فإنها لا تدخل فى الأوصاف الخاصة بالمؤنث مثل : حائض ، مرضع ، ثيب.

– ألف التأنيث المقصورة : وهى ألف لازمة مفتوح ما قبلها تلحق آخر الكلمة المؤنثة .

– ألف التأنيث الممدودة : وهى مقطع مكون من همزة تسبقها ألف مد مفتوح ما قبلها ، وهى تلحق الأسماء ، دون الأفعال مثل : حسناء ، صحراء ، كبرياء ، عاشوراء . راجع : القواعد الصرفية ـ الدكتور على أبو المكارم ـ طبعة ١٩٧٩ ص : ٦٢ ـ ٦٥ .

(٢) قدح : أثَّر . يقال : قدح الشىء فى صدرى : أثَّر . وفى حديث على كرم الله وجهه : يقدح الشك فى قلبه بأول عارضة من شبهة . [لسان العرب ـ مادة : قدح] .

(٣) عرج يعرج عروجاً : صعد وعلا وارتفع . والمعراج : كل ما ساعدك على الصعود . والجمع معارج . قال تعالى : ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)﴾ [الزخرف] أى : يركبونها ويصعدون فيها إلى أعلى . [القاموس القويم باختصار : ١٣/٢] .

(٤) قال الأزهرى وغيره : جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار . [انظر : لسان العرب ـ مادة : فتن] .

فالرسول ﷺ لو كان قد قال إنها رؤيا منامية لما كذَّبه أحد فيما قال ؛ لكنه أعلن أنها رؤيا حقيقية ؛ لذلك عبَّر عنها القرآن بأنها فتنة للناس .

وهنا يقول يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ .. ۝٥ ﴾ [يوسف]

لأن يعقوب عليه السلام كأب مأمونٌ على ابنه يوسف ؛ أما إخوة يوسف فهم غير مأمونين عليه ، وحين يقصُّ يوسف رؤياه على أبيه ، فهو سينظر إلى الصالح ليوسف ويدلُّه عليه[1] .

أما إن قصَّ الرؤيا على إخوته ؛ فقد تجعلهم الأغيار البشرية يحسدون أخاهم ، وقد كان .

وإن تساءل أحد : ولماذا يحسدونه على رؤيا منامية ، رأى فيها الشمس والقمر وأحدَ عشرَ كوكباً يسجدون له ؟

نقول : لا بُدَّ أن يعقوب عليه السلام قد علِم تأويل الرُّؤيا ؛ وأنها نبوءة لأحداث سوف تقع ؛ ولا بُدَّ أن يعقوب عليه السلام قد علم أيضاً قدرة إخوة يوسف على تأويل تلك الرؤيا ، ولو قالها يوسف لهم لَفهِموا المقصود منها ، ولا بد حينئذ أن يكيدوا له كيداً يُصيبه بمكروه .

فهم قد أصابهم الضيق من يوسف وهو ما زال طفلاً ، فما باله بضيقهم إنْ علِموا مثل هذه الرؤيا التي يسجد له فيها الأب والأم مع الإخوة .

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣٤٤٧/٤) : « هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها » .

ولا يعنى ذلك أن نعتبر إخوة يوسف من الأشرار ؛ فهم الأسباط[1] ؛ وما يصيبهم من ضيق بسبب غُلو عاطفة الأب تجاه يوسف هو من الأغيار التى تصيب البشر ، فهم ليسوا أشراراً بالسَّليقة[2] ؛ لأن الشرير بالسَّليقة تتصاعد لديه حوادثُ السوء ، أما الخيِّر فتتنزَّل عنده حوادث السوء .

والمثل على ذلك : أنك قد تجد الشرير يرغب فى أن يصفع إنساناً آخر صفعة على الخَدِّ ؛ لكنه بعد قليل يفكر فى تصعيد العدوان على ذلك الإنسان ، فيفكر أن يصفعه صفعتين بدلاً من صفعة واحدة ؛ ثم يرى أن الصفعتين لا تكفيان ؛ فيرغب أن يُزيد العدوان بأن يصوِّب عليه مسدساً ؛ وهكذا يُصعِّد الشرير تفكيره الإجرامى.

أما الخيِّر فهو قد يفكر فى ضرب إنسان أساء إليه « علقة » ؛ لكنه يُقلِّل من التفكير فى رَدِّ الاعتداء بأن يكتفى بالتفكير فى ضربه صفعتين بدلاً من «العلقة » ، ثم يهدأ قليلاً ويعفو عمَّنْ أساء إليه .

وإخوة يوسف – وهم الأسباط[3] – بدءوا فى التفكير بانتقام كبير من يوسف ، فقالوا لبعضهم :

---

(١) الأسباط : جمع سبط ، والسبط : الشجرة ذات أصل واحد ، ولها أغصان كثيرة ، ونقل ذلك مجازاً إلى شجرة النسب . فالسبط : القبيلة المتفرعة من أصل واحد . والأسباط : هم القبائل من أولاد يعقوب عليه السلام ، وهما اثنتا عشرة قبيلة تنسب إلى أبناء يعقوب الاثنى عشر : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما .. (١٦٠) ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم : ١/ ٣٠٠].

(٢) السليقة : الطبيعة والسجية ، وفلان يقرأ بالسليقة أى بطبيعته لا بتعلُّم . وقيل : بالسليقية ، أى : بطبعه الذى نشأ عليه . قال أبو زيد : إنه لكريم الطبيعة والسليقة [لسان العرب ـ مادة : سلق] .

(٣) ذكرت كلمة الأسباط فى القرآن ٥ مرات منها ٤ مرات يُعنَى بها أسباط كانوا أنبياء ، والموضع الخامس الأسباط بمعنى أصول قبائل بنى إسرائيل ، وكان كل ابن من أبناء يعقوب هو أول السبط أو ذاك.

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ .. ⑨ ﴾ [يوسف]

ثم هبطوا عن هذه الدرجة المؤلمة من تعبيرهم عن الغيرة من زيادة محبة أبيهم ليوسف ، فقالوا :

﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ(١) أَرْضًا يَخْلُ(٢) لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ⑨ ﴾ [يوسف]

وحينما أرادوا أن يطرحوه أرضاً ترددوا ؛ واستبدلوا ذلك بإلقائه فى الجُبِّ(٣) لعل أن يلتقطه بعض السَّيارة(٤) . فقالوا :

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ(٥) الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. ⑩ ﴾ [يوسف]

وهذا يدل على أنهم تنزَّلوا عن الانتقام الشديد بسبب الغيرة ؛ بل إنهم فكروا فى نجاته .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

---

(١) طرح الشيء يطرحه طرحاً : نبذه وألقاه ، قال تعالى : ﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ⑨ ﴾ [يوسف] أى : ألقوه فى أرض بعيدة . [القاموس القويم ١/٣٩٩] .

(٢) خلا فلان إلى فلان : فرغ له ولم يشتغل عنه بغيره . قال تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ⑨ ﴾ [يوسف] أى : يفرغ لكم والدكم ، ويتجه إليكم بكل عنايته ، ولا يشتغل عنكم بأحد غيركم . [القاموس القويم ١/٢٠٩] .

(٣) الجب : البئر التى لم تُبْن بالحجارة . قال الليث : الجب : البئر غير البعيدة . وقال الفراء : بئر مُجَبَّبة الجوف إذا كان وسطها أوسع شيء منها مُقَبَّبة . وهو أيضاً : البئر الكثيرة الماء البعيدة القعر . [لسان العرب - مادة : جبب] .

(٤) سيَّار : كثير السير ، صيغة مبالغة . وسيارة : صيغة مبالغة للمؤنث . والسيارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ .. ⑲ ﴾ [يوسف] أى : جماعة مسافرة ، وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ .. ⑨⑥ ﴾ [المائدة] للمسافرين [القاموس القويم ١/٣٤٠] .

(٥) غاب الشيء يغيب غيباً : استتر عن العين أو عن علم الإنسان فى المعنوى . والغيب : مصدر ويسمى به ما غاب واستتر ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ③ ﴾ [البقرة]. [القاموس القويم ٢/٦٤ ، ٦٥ باختصار] .

﴿ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا .. ⑤ ﴾ [يوسف]

والكيد : احتيال مستور لمَنْ لا تقوى على مُجَابهته، ولا يكيد إلا الضعيف ؛ لأن القوى يقدر على المواجهة .

ولذلك يُقَال : إن كيد النساء عظيم ؛ لأن ضعفهن أعظم .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ⑤ ﴾ [يوسف]

وهذه العداوة معروفة لنا تماماً ؛ لأنه خرج من الجنة ملعوناً مطروداً ؛ عكس آدم الذى قَبِل الله توبته ؛ وقد أقسم الشيطان بعزة الله لَيُغْوِينَّ الكُلَّ ، واستثنى عبادَ اللَّه المخلصين[1] .

ولذلك يقول ﷺ : « لقد أعانني الله على شيطاني فأسلم »[2] .

ويصف الحق سبحانه عداوة الشيطان للإنسان أنها عداوةٌ مُبينة[3] . أى : محيطة . وحين نقرأ القرآن نجد إحاطة الشيطان للإنسان فيها يقظة :

﴿ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ⑰ ﴾ .. [الأعراف]

(١) حكى رب العزة هذا عن إبليس اللعين أنه قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٣ ﴾ [ص] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياى ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بحق » . أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٥) .

(٣) بان الشيء يبين بياناً : ظهر واتضح فهو بيِّن وهى بيِّنة أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البيِّن والبينة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة ، وبالمعنيين يُفسَّر . وبين الشيء وأبان وبيَّن واستبان : لم يَعُدْ خافياً . وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝١٦٨ ﴾ [البقرة] . [القاموس القويم ١/ ٩١ ، ٩٢ بتصرف] .

ولم يَأْتِ ذكْر للمجيء من الفوقية أو من التحتيـة ؛ لأن مَنْ يحيا في عبودية تحتية ؛ وعبادية فوقية ؛ لا يأتيه الشيطان أبداً .

ونلحظ أن الحق سبحانه جاء بقول يعقوب عليه السلام مخاطباً يوسف عليه السلام في هذه الآية :

﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا .. ⑤ ﴾ [يوسف]

ولم يقل : فيكيدوك ، وهذا من نَضْح[1] نبوة يعقوب عليه السلام على لسانه ؛ لأن هناك فارقاً بين العبارتين ، فقول : « يكيدوك » يعني أن الشرَّ المستور الذي يدبرونه ضدك سوف يصيبك بأذى.

أما ﴿ فَيَكِيدُوا[2] لَكَ .. ⑤ ﴾ [يوسف]

فتعني أن كيدهم الذي أرادوا به إلحاق الشر بك سيكون لحسابك ، ويأتي بالخير لك .

ولذلك نجد قوله الحق في موقع آخر بنفس السورة :

﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. ㊆ ﴾ [يوسف]

أي : كِدْنا لصالحه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) أصل النضح : الرشح . يقال : نضح الرجل بالعرق نضحاً : فضَّ به . ونضحت العين : فارت بالدمع وعيناه تنضحان ونضحت الخابية والجَرَّة تنضح : إذا كانت رقيقة فخرج الماء من الخزف ورشحت . [لسان العرب ـ مادة : نضح بتصرف] .

(٢) كاد فلاناً يكيده كيْداً : خدعه ومكر به واحتال لإلحاق الضرر به ، والكيد مصدر ويُطلق على العمل أو الوسيلة التي يتذرع بها الكائد ليتغلب على خصمه . [القاموس القويم ١٨٠/٢] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ(١) وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ(٢) وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾

أى : كما آنسك الله بهذه الرؤيا المُفْرحة المُنْبِئة بأنه سيكون لك شأن كبير بالنسبة لإخوتك وبالنسبة لأبيك ، فلسوف يجتبيك ربك ؛ لا بأن يحفظك فقط ؛ ولكن بأن يجعل كيدهم سبباً لصالحك ، ويُعلِّمك من تأويل الأحاديث ما يجعل أصحابَ الجاهِ والنفوذ يلتفتون إليك .

ومعنى تأويل الشيء أى معرفة ما يؤول إليه الشيء ، ونعلم أن الرُّؤى تأتى كطلاسم ، ولها شَفْرة رمزية لا يقوم بِحلِّها إلا مَنْ وهبه الله قدرة على ذلك ؛ فهى ليست علِْماً له قواعد وأصول ؛ لأنها إلهامات من الله سبحانه وتعالى .

---

(١) اجتبى فلاناً : اختاره واستخلصه واصطفاه ، قال تعالى : ﴿ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾ [الشورى] أى : يصطفى ويختار من يشاء من خلقه . [القاموس القويم ١١٧/١] .

(٢) الحديث : الكلام وجمعه أحاديث ، والأحاديث جمع أُحْدوثة ، وهى الحديث العجيب . والحديث قد يُطلق على الرُّؤى والأحلام ، قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ..(٦) ﴾ [يوسف] وأما قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ..(٤٤) ﴾ [المؤمنون] فهو كناية عن الموت والهلاك ، أى : بعد أن كانوا أحياء صاروا أمواتاً يتحدَّث الناس عنهم . [القاموس القويم ١٤٥/١] .

وبعد ذلك تصير يا يوسف على خزائن الأرض ؛ حين يُوجد الجَدْبُ[1] ، ويعُمُّ المنطقة كلها ، وتصبح عزيز مصر .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ⑥ ﴾ [يوسف]

فكلُّ ما تَمَتَّع به يوسف هو من نعم الدنيا ، وتاج نعمة الدنيا أن الله اجتباه رسولاً .

أو أن : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ⑥ ﴾ [يوسف]

بمعنى الا تسلب منك النعمة أبداً ؛ ففى حياة يوسف منصبٌ مهم ، هو منصب عزيز مصر ، والمناصب من الأغيار التى يمكن أن تنزع .

أو أن : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ⑥ ﴾ [يوسف]

بأن يصل نعيم دنياك بنعيم أُخْراك[2] .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⑥ ﴾ [يوسف]

يُذكِّر الحق سبحانه يوسف عليه السلام بأن كيد إخوته له لا يجب أن يُحوِّله إلى عداوة ؛ لأن النِّعم ستتم أيضاً على هؤلاء الإخوة فهم آلُ يعقوب ؛ هم وأبناؤهم حَفَدة يعقوب ، وسينالهم بعضٌ من عزٍّ

---

(١) الجدب : القحط وهو نقيض الخصب . والأرض الجدبة : التى ليس بها قليل ولا كثير ولا مَرْتَع ولا كلأ . والأرض المجداب : التى لا تكاد تُخْصب . [لسان العرب ـ مادة : جدب] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٥٠/٤) « ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ⑥ ﴾ [يوسف] أى : بالنبوة . وقيل : بإخراج إخوتك إليك . وقيل : بإنجائك من كل مكروه » .